مهدي شاكر العبيدي

طه حسين والاطروحة الاولى

بغياب الدكتور طه حسين تنطوي مرحلة فكرية وادبية متميزة الملامح والسمات في تاريخ الثقافة العربية ، ففضلا عما تولى عنه الرواد ابان النهضة الحديثة التي نقلت العالم العربي من جاهلية الاعصر العثمانية وبقية مظاهر التخلف والجمود التي سادتها وغلبت عليها ، الى مجاراة الامم الناهضة في الاخذ باسباب العلم والتنوير والتمرس بالنظم الحديثة في مجال الحكم على ما يصحبها من اوجه الخرق والمخالفة والحيدة عن الشرائط الموضوعةوالقواعد المسننة ، ومجاوزة ذلك الى استغلالها وتسخيرها لضمان المنافع والمصالح الشخصية في احيان كثيرة ـ فضلا عما تولى عنه هؤلاء الرواد من تعريف بانجازات الفكر الاوروبي من ناحية ابتداع مناهج البحث وترسم الموضوعية في الدراسة الادبية وانتهاء الادباء الاوروبيين من كتابة نماذج حية دالة على براعتهم في التخيل والتصوير واجتلاء الحس الانساني العميق ، بالاضافة الى احيائهم للتراث ، للنماذج الرائعة المضيئة منه ، والتفرغ لدراستهواخضاعها لمدارس النقد الحديث ، المجانبة للتعصب والانحياز وتغليب الميول الذاتية في اطلاق الاحكام ، فانهم اعتدوا الميراس الادبي امرا مشابها للحرفة يعول عليها في التحصيل والكسب ، لا هواية يتوسل بها لتزجية الفراغ ومغالبته . ومن هنا كان مصدر الجد والمثابرة والاخلاص في نظرتهم الى القضايا الفكرية المطروحة للدرس والمناقشة واخذهم ذواتهم بالتثقف والاطلاع ، وتوفقهم الى انماط واساليب في فن القول والكتابة ، مستوحية لطبائع نفوسهم وممثلة لسلائقهم وخصائصهم الشخصية ،بحيث امكن لك ان تتعرف على كل منهم خلال الاسلوب لو اختبرت في ذلك في حالة حجب الاسم عنك !

بغياب هذا الرائد ينتهي طور التفرد في الاسلوب الكتابي ، ليعم طور اختلاط الاساليب وتمازجها وتهافت اصحابها على النشرومواصلة الانتاج والتهاس الشهرة السريعة على حساب التفريط بشرائطالعمق والموضوعية والتفنن في الصياغة وفق ما تلزم به الحاجة او الجري على تقاليد الادب العربي العريقة في احلال اللفظة محلها وانزالها من قرارها ، بحيث تشاكل ما قبلها وما بعدها . **في تادية القصد** وتجسيد المعنى ، من غير حذلقة او تفصح . واني لمعترض ان يضحي بسمعته ومكانته فيدل على هذه الظواهر الشائهة او يحذر من مغبتها على مستقبل الثقافة العربية ، فالاتهام بالتخلف ابين ما يصمه به اصحاب الحق والجمال ، ودعاة التجديد والحداثة ، ان شفعت لهم انتماءاتهم الفكرية والسياسية ، وسمحت لهم بتوهم ذلك !

وما لنا نسرف في امتداح اسلوب طه حسين واستحسان ما ينطبع به من عذوبة الموسيقى وجمال الايقاع والقدرة الفائقة على معاودة صياغة المعنى الواحد بالعبارة المبتكرة الجديدة المباينة للسابقة في المفردات والالفاظ ، دون ان يبتعث ذلك في نفوسنا شعورا بالملل والسأم ويدفع بنا الى الانحاء عليه بالتعمد والافتعال والقصد قبل ان نقر له بالعفوية والانطلاق والترسل بوحي الطبع والسجية ، فقد دلل الكثيرون على ان هذا الاسلوب يمثل نقلة حية في تاريخ البيان العربي ، كان لها اثرها الواضح على كتابات المحدثين الذين ان عجزوا عن محاكاته ومطابقته في بعض خصائصه ، في حال من استواءالتقليد والتخلي عن الاصالةفانهم تعلموا منه مجانبة التكلف واستكراه الالفاظ وتصيدها على غرار صنيع ادباء الفترة المظلمة التي انحسرت فيها ظلال الثقافة العربية جراء تسلط الفاتحين وغلبتهم علينا بالقهر والعسف . وحسب هذا الاسلوب المتفرد ان صار طوع نزوع الاديب الكبير الى تسجيلعصارة تجاربه القاسية مع الناس والحوادث عبر تلك المقالات الفنيةالرائعة التي تتلمس بين سطورها بجلاء نبرة الصدق والانفعال والالم ،فقد امتحن الدكتور طه حسين غير مرة بالعداوات والصراعات الفكرية مع مخالفيه في الرأي والعقيدة واعتماد التفسير الملائم المقبول لظواهر الحياة وشؤون الحكم وحقائق الادب . واوسعه الكثيرون تجريحا وايلاما ، وخاب ظنه بالاصدقاء القدامى ممن انحرفت بهم الظروف عن وجهاتهم السابقة ، وانحازوا لارباب السلطة مؤثرين الرغبات والمقاصد التي تحلهم محل البروز والصدارة والاستعلاء ، وتظهرهم بمظهر الصاعد في سلم الحياة ، على الاحتفاظ بمشاعر الود والوفاء ورعاية الصلات القديمة ، وكذا تمثل طويات هؤلاء ودخائلهم وما انتهوا عنده من الضعف والتهافت ، فيصور كل ذلك تصويرا دقيقا نابضا يقطر بالاسى والمرارة وتشف معه الالفاظ على وجه يحكي المكابدة الواقعية التي ان كانت ثمرتها الاولى مواجهة ما يكره من التعنت والحيف ، والتعلل بان ما يلقى قدر لازب يحيق باحرارالفكر، فانها عوضته بهذا العنصر الفريد الذي تلتقي عنده جوانب الاسر والروعة والتلقائية والتدفق مما لا يعرفه الكتاب الا اذا كان الاخلاص دليلهم ورائدهم ومصدر الهامهم. ونضيف ان عميد الادب لم يمر خلال سني حياته الادبية بما تعارف مؤرخو الاداب والنقاد على تسميته بتطور الكاتب وتحوله من ناحية المواقف والاهتمامات والصياغة العبارية او المستوى الثقافي على وجه ادق جريا مع تعاقبالسنوات

ونعدد المطالعات ، فقد تبدى هذا الرائد عبر مؤلفاته جميعا ، بدءا من اولياتها وانتهاء بالاخريات ، اديبا متمرسا بفنون الصياغة ، مستوفيا في دراساته ومباحثه للمظان والمراجع . عارفا بطريقة استخدامها في استقراء الحقائق وتخريج المسلمات، مستكملا لما يلزم الاديب الحر من الجرأة ومعارضة المألوف السائد من القيم والمواضعات الاجتماعية والاراء الادبية ، ان وجد فيها ما يجافي الحق او يباين الصواب !. ان طه حسين في المرحلة البدوة ، ومن ناحية النضج الادبي والمستوى الفكري والقدرة على التعبير الوقود الرصين الذي ما نجتلي فيه تكلفا او تعملا او صناعة فجة ، هو عينه في المرحلة المتأخرة يوم حظي بالتكريم والتقدير ورشح لنيل الجوائز العالمية .

لكتاب «تجديد ذكرى ابي العلاء» دلالة عظيمة في تاريخنا الثقافي، لا لانه اول رسالة قدمت الى الجامعة المصرية في بداية تأسيسها لينال صاحبها شهادة العالمية ولقب الدكتوراه في الاداب ، وانه اول اثر فكري اعتمد في اعداده على منهج البحث القائم على التحليل والتفسير والرجوع الى المظان والمصادر ، بل يكتسب اهميته من انه امر بدع يدعو الى الاندهاش والاعجاب بمكنات ابن الخامسة والعشرين دال بجودة تأليفه واحكام خطته وتوفره على الدقة والتثبت والموضوعية في تسجيل ارائه وخواطره ومقولاته حول ادب المعري وفلسفته وعلاقته بعصره وموقفه من الحوادث الاجتماعية والسياسية المستجدة يومذاك ، على مقدار الجهد والنصب والعناء ، مما خبره والفه طويلا ، وخلص منه الى شحذ موهبته واستيفاء اداته الفنية واللغوية . وقد نتعلم منه اشياء كثيرة عن تواضع العلماء وبساطة المفكرين وسذاجة العظماء ، وابتعادهم عن التعالم والغرور . ففي المقدمة التي كتبها طه حسين عام ١٩٥١ لطبعته السادسة ينص بالحرف الواحد : « لم اتعمد ان يكون الكتاب موفق العبارة ولا رشيق اللفظ ، لاني لم ارد به اظهار التفوق والنبوغ في فن الانشاء ، وانما اردت ان اصور رجلا من رجال التاريخ » (١) . بينما الحال ينبي انه بقدر احتفال الكتاب بالحقائق والوقائع والاخبار ، واحتفائه بالتعليل والتفسير وحسن استخدامه للمنطق وما يلزم به من الاناة والروية قبل التعجل والمجازفة في عرض الاراء والاحكام ، فقد تأتى لكاتبه ان يتألق في بيانه ويسمو في عبارته ويستوي على الامد في روعة الاسلوب مما ساعد على جلاء الحقائق ووضوحها اكثر فاكثر !.

ويكتسب الكتاب دلالته كذلك من انه قوبل غداة نشره بطبعته الاولى ابان سني الحرب العظمى ، بمعارضة السلفيين والجامدين ورفضهم لطريقة تأليفه واتهامهم الكاتب بالافتئات والارجاف على ابي العلاء وتعمده التشكيك في عقيدته ، فهو من هذه الناحية يؤرخ لحركة النقد عندنا وما يتفشى فيها عادة من تحكيم الاهواء وتغليب المنازع الذاتية وتجريد المرء من حرية الفكر والرأي والامعان في شتمه وثلبه ، باسم المحافظة على التقاليد والقيم الدينية والاجتماعية وصونها من التصدع والانهيار ، بينما لا تخفي الوقائع المنظورة ما يكمن وراء ذلك من الحسد والغيرة والحقد وكراهة التميز ، وغير هذه الادواء الخبيثة التي تسري في نفوس بعض من ينصبون صدورهم سدنة للاخلاق وحضنة للتراث ، وحسبنا ان نتعلل بقولة طه حسين :« اما الذي يبغضك ويحقد عليك فيتخذ النقد سبيلا الى ايذائك والنيل منك ، فخليق بك ان تتركه وشأنه وان تنصرف عنه الى ما ينفع ويفيد » (٢) .

واذا علمنا ان هذه العبارة كتبت عام ١٩٢٢ ضمن مقدمة الطبعة الثانية للكتاب ، فحري بنا ان نستقي منها درسا في ادب النفس حيال ما يكتنف حياتنا الادبية قبلا وبعد من التحيز في اثابة البعض وتثمين دورهم مع استبعاد الاخرين وحرمانهم ، بحيث صار لزاما ليدلل على كفايتك ويتداول الباحثون والنقاد نتاجك ان تنضم الى شلة وتنخرط في جماعة ، او تصطنع المريدين من ضعاف النفوس ان كنت على قدر من متانة الشخصية وقوتها .

وثمة ملاحظة اخرى قد يستدل منها على الريادة الفذة لطه حسين في مجالها ، تفيد انه عني بتوضيح معنى الجبر في مذهب ابي العلاء وتحريه عن مصادره ومآتيه وخلص الى القول : « الحياة الاجتماعية هي التي تأخذ اشكالها المختلفة وتنزل منازلها المتباينة بتأثير العلل والاسباب ، ولا نعتقد انفراد الاشخاص بالحوادث، وانما نعتقد ان الحوادث اثر لطائفة من المؤثرات وعلى هذا لا نستبيح لانفسنا ان نضيف اثرا من الاثار الى شخص من الاشخاص مهما ارتفعت منزلته وعلت مكانته ومهما عظم اثره وجل خطره ، وانما على اثر مادي او معنوي، ظاهرة اجتماعية او كونية ، ينبغي ان ترد الى اصولها وتعاد الى مصادرها ، وان نستقي من ينابيعها ونستخرج من مناجمها » (٣) .

ورغم ان الثقافة العربية جازت مؤخرا هذه الفحاوي وتخطتها الى نظرة علمية اكثر تحديدا وشمولا وارتباطا بالواقع وتعبيرا عن صراعاته وتناقضاته وعلاقاته الانتاجية ، فسوف نظل لمقولة الاديب الراحل اهميتها البالغة في تاريخ تلك الفترة من حياة المجتمع العربي ، حيث رجح الناس يومها دور الفرد في تصريف الشؤون والحوادث ، وغلبوا اثر المصادفات العارضة على فاعلية القوانين والبواعث الاخرى ، فنبههم الى ان : « حياتهم لا تجري كيفما اتفق، انما تصرفها العوامل والاسباب ، فللبيئة الاجتماعية تأثير على حياة الفرد ، وللعادات والاخلاق كذلك » (٤) .

اجل يبقى لذلك الاستقراء الاولي مزية الريادة والكشف والدلالة العميقة ، رغم ما انحى على صاحبه بعض مريدي المنهج العلمي في مرحلة تالية من ابتعاده عن « قراءة الاصول العلمية للمشكلات الانسانية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية او عن تعمق هذه الاصول التي يقوم عليها هذا الانقسام الكبير العميق بين عالمي الارض » . (٥)

وليس لنا ان نحمل هذا الرائد اكثر مما في وسعه وامكانه، بل يحسن بنا ان نتسمح من هذه الناحية ، وشافعه انه كان من كتاب المواقف وانه لا يعدم انتفاضاته المتكررة على الظلم والظالمين، ومناصرته للمحرومين والمضطهدين ومناوأته للعسف والطغيان ، عبر سني حياته الممتدة استاذا جامعيا او عاملا في الصحافة .

العراق ـ الحلة

---

(١) تجديد ذكرى ابي العلاء ص ١٤

(٢) المرجع السابق ط ٦ ص ٤

(٣) المرجع السابق ط ٦ ص ١٩

(٤) المرجع السابق ط ٦ ص ٢٦٤ بتلخيص

(٥) مجلة الاداب ، العدد الاول ، السنة الاولى ٩٥٣ م ، مقالة للاستاذ حسين مروة حول كتاب (بين بين) .